اليمن في عام 1962 م

بعض اليمنيين وصفوا الإمام بأحمد (ياجناه) والبعض الآخر وصفوه بالعمامة الكبيرة

كان رجلٌ يتحدث في مقر الحكومة في عدن عن اليمن في عام 1962م عندما لم تكن هناك فنادق ولا سياح ولا حتى طريق إلى العاصمة صنعاء إلا الطرق الصخرية للجمال والسيارات الكبيرة ،حتى المراحيض المستوية لم تكن معروفة، لذلك كانت العملة التي تحملها ماريا تيرسا ثيلرز بصَرة هي عملات فضية كبيرة سكت في فينا في عام 1741م يقول إنها المخاطرة أن تذهب إلى هناك، لا أرى أنه يجب عليك أن تذهب إلى هذا البلد إنه في فوضى لا أحد يعرف ماذا يحدث ، أخر مرة انطلقت طائرة من هنا اختفت تماماً، يمكن أن يسلبوك ما معك أو يأسروك.. إنهم يرمون الناس في الزنزانات ، تعلمون أنهم يمكن أن يقطعوا عنقك ، يقول ذلك وهو يبتسم ابتسامة عريضة .

كان يتحدث عن اليمن ليس يمن الحاضر بفنادقه الخمسة نجوم في المدن وملاعب التنس ومراكز اللياقة والمتاجر والزيارات السياحية الجماعية إليه،(بغض النظر عما يحصل عرضياً من أحداث الآن).

كان يسمح للقليل من الأجانب بالدخول إلى البلد و يحتاجون إلى إذن شخصي من الإمام الحاكم – كان هذا الشخص الذي هو في مقر الحكومة متكئاً على الحانة في فندق الصخرة بعدن، المستعمرة البريطانية في الجنوب آنذاك في الجانب الآخر للصحراء من الأرض الممنوعة.

كان يتحدث بإحباط إلى ستة مراسلين أجانب متلهفاً للدخول إلى اليمن ، حيث كان الإمام قد توفي وابنه قد أطاحت به الثورة التي أنهت (1100) سنة من الحكم الملكي. كان الستة المراسلون بريطانيين ما عدا أنا كنت كندياً.. كنت أتقاسم غرفة الفندق مع مراسل من صحيفة «الأوبزيرفر» اسمه (كيم فيلبي) .

ديفيد لانكشير David Lancashire – ترجمة /عماد طاهر

إنه كيم فيلبي نفسه الذي اختفى من الشرق الأوسط بعد مرور أربعة أشهر فيها ثم ظهر في موسكو والذي تبين أنه الرجل البريطاني الثالث المشهور بالتجسس للإتحاد السوفياتي في الماضي (لكن تلك قصة أخرى). بالنسبة لتلك الأيام كنا قد أرسلنا برقيات إلى قائد الثورة في صنعاء ورجعنا الجواب بأنه يمكن عبور الحدود إلى اليمن . وبالرغم من التحذير من مقر الحكومة، استأجرنا سيارة لاند روفر كبيرة بسائقها الذي أنطلق بنا إلى أرض مملكة سبأ في الأرض العربية الأكثر شراً وكان معنا مصور جريدة «نيوز ريل» الأردنية ، الحمد لله أنه يتحدث اللغة العربية التي لا يتحدثها أحد منا .

كانت ست ساعات متعبة على طول الطريق الغباري مع بعض النكات التي تنذرنا بأن اليمنيين سيرموننا في حفرة العقرب كنا نلقي نظرة سريعة إلى أحجار الحصون القديمة ، وموقع الأقدام الهادئة لقوافل الجمال ونساء يحملن على رؤوسهن علب الكيروسين فيها الماء كانت العربة تهتاج تحت لحافها الأزرق المطرز الذي يغطي سقفها .

كان يوجد بعد بضعة كيلو مترات من الوديان الصخرية والقرى الطينية الحدود المروعة التي تتألف من لوح خشبي ثقيل عبر الطريق تتأرجح فوق صندوق خشبي .

كان بجانب الصف من البيوت المسقوفة بالقش تقف سيارة مصفحة قديمة وضابط من الجيش اليمني الحافي بالزي العسكري القديم وهو قميص داخلي وعمامة وقلم من الريش مدسوس بجانب الخنجر في حزامه .

اعتقدنا انه مستعد لرقصة لكنه قال لنا (أهلاً) ومال إلى السيارة لمصافحتنا كلنا، متجاهلاً جوازات سفرنا ولوح لنا بالعبور.ونحن نحث الخطى في السفر رأينا مشهد لنساء غير محجبات يعملن في الحقول المعشبة ، وجمال معصوبة العين تدور ببطء حول آبار المياه ، وزهور مذهلة ، ورجال يركبون الحمير وآخرين يمشون على الأقدام ، كل واحد منهم حاملاً سلاح أو بندقية قديمة ، وليس هناك دوريات من الجيش ولا أية علامة على الثورة ، من السهل جداً أن تكون قد وقعت، نحن ظننا ذلك وكنا على حق.

وبعد خمسة وأربعين دقيقة وقفنا على أول قرية ببوابة خشبية كبيرة على فناء الجدار الصخري ، عندما وصلنا تأرجحت البوابة وهي تُغلق خلفنا وكان هناك حشد من رجال القبائل ممسكين بنادقهم يحملون عمائمهم بمشقة مشكلين صف غير منظم على نحو مشئوم وكأنهم يرمون الرصاص.

ثم بعد ذلك ابتسموا جميعهم ورددوا (عاش الشعب) ثم صفقوا وتجمع حشد كبير حتى إننا لم نستطع الخروج من السيارة (لاند روفر) في الوقت الذي تدافعنا وسط الحشد لالتقاط بعض الصور وكان السائق متضايقاً كثيراً وكانوا يظهرون لافتات عليها صور جمال عبد الناصر رئيس مصر آنذاك

يحصى من أكواب الشاي توالت علينا إلى قمة التل في المدينة الحجرية لمحافظة تعز بالقصر القديم للإمام الراحل وكان الجنود يحملون صناديق لبنادق روسية من قبو القصر.

اكتشفنا أن واحداً من هذه الصناديق من جنوب أفريقيا فيه شراب مسكر ، ولوحظ أن الصندوق مكتوب فوقه (قرآن) ،تجولنا خلال المباني وكانت فرس الإمام البيضاء مربوطة عند البوابة ، تصهل بارتباك ،كانت القيود معلقة على مسامير في الجدار وكان التاج متدلي على العرش الخشبي وكان هناك بضعة جنود أنها كانت محل إقامة ملكية بسيطة في القرن العشرين .

هذا كان مكان الإمام العجوز أحمد بن يحيى أمير المؤمنين الذي توفي في فراشه وقد نجا من عشرات المحاولات لاغتياله (الذي كان يعتقد اليمنيون أن الرصاص لا تؤثر فيه) .

العربة إلى المطار ووقفنا بجانب المدرج الذي كان طريق لطائرات مقاتلة سوفيتية ذات شبكة الأسلاك المأكولة من قبل الفئران .قدمت طائرات قديمة (DC3) بطاقم مصري وأقلعنا إلى صنعاء عاصمة اليمن الآن .

استغرقت الرحلة ثلاثة أيام بالعربة لكنها كانت بالطائرة (45) دقيقة وبعد ساعتين عندما كنا لا نزال ندور حول الجبال والهضاب علمنا أن المصريين أضاعوا الطريق عندما توقفوا أخيراً في صنعاء هبطوا عن طريق الخطأ .. عندما وثبت الطائرة على بعد (200) متر من نهاية المدرج اندفعت بعنف فوق قنوات الري وتهزهزت بعنف لتتوقف في حقل محروث ، كان هناك

المائدة مغطاة بقماش زيتي وبعد عدة دقائق جلس بيننا ضابط من الجيش ملتح وشعر صدره بارز ، سألناه متى نستطيع لقاء الرئيس السلال فقال لنا المضيف (إن هذا هو القائد السلال) مشيراً إلى الضابط أسقطنا قطعة القماش ودفعنا إليه دفاتر الملاحظات .

قال لنا القائد إن الثورة نجحت لكن كان قصر البشائر المحطم وإقامة الإمام الجديد محمد البدر على مسافة (200) متر ، أوحت بأنه ربما قد نجا كانت القذائف قد دمرت الطابق العلوي فقط للقصر كما لاحظنا ، وتبين لاحقاً أن الإمام هرب من أسفل المرحاض إلى تجمع القبائل الملكية في الجبال الشمالية ونتج عن ذلك حرب أهلية استمرت لسنوات .

كانت فترة حكم الإمام البدر قد استغرقت أسبوع واحد فقط على العرش ثم مات بسلام في انجلترا عام 1996م وهو آخر إمام في اليمن ، كانت حالة المقر الجمهوري في فوضى ومع ذلك قد انتصروا .

كان مكتب القائد السلال مملوء بأسرة للضباط المصريين وأضيفت سبعة أسرة لنا ولم يكن هناك أي أثاث تقريباً في المبنى ولا مكان لأحد أن يعمل .

ثلاثة من العرب في بدلات عمل جاثمين في حافة النافذة يصممون علم للجمهورية الجديدة وشيوخ وقبائل جالسين على الأرض يرتشفون الشاي.

وبعد يومين قدم لنا القائد السلال طائرة تقلنا إلى عدن .. نحن رفضنا أن نسافر مع الطيارين المصريين فقام بإعطائنا الطائرة الشخصية القديمة للإمام وهي من طراز (انتونوف) بطاقم روسي ثم غادرنا ليسرع بنا إلى مكتب المستعمرة اللاسلكي والسلكي في الباخرة حيث يمكننا أن نرسل ما معنا .

وفي تعز أخبرنا وزير الصناعة (التي كانت اليمن لا تمتلك شيء منها) أن النظام الجمهوري يهدف إلى إخراج البلاد من القرن الثالث عشر (وكان مخطئاً) لقد قال لنا السلال قبل مغادرتنا (إنه القرن العاشر هنا) .

هناك حشد من رجال القبائل يرفعون لافتات عليها صور جمال عبد الناصر رئيس مصر آنذاك وقائد الثورة الجديدة عبد الله السلال

وقائد الثورة الجديدة عبد الله السلال .

ثم أخذنا إلى شيخ القرية وكان هناك بندقية روسية الصنع معلقة على وتد مثبت في الجدار.. أمتلئ المكان برجال القبائل في جلسة قات مبهجة (الأوراق المخدرة والتي هي حول كل رجل يمني يمضغها) في ذلك الوقت قدم أحدهم ست قوارير بيبسي كولا وقال الشيخ مرحباً بكم .

إنه لم ير صحفيين من قبل وسأل ما هي بلداننا التي أتينا منها وأين هي .أنا من كندا التي لم تكن في ذلك الوقت سيئة .

بعد بحث سريع في حقائبنا في حالة ما إذا كنا نحمل سلاحاً أو أرسلت عن طريقنا كان المتظاهرون حقا يتأرجحون بالنشيد ويصعدون فوق سيارتنا ويركضون خلفنا لمدة ساعتين يغنون ويلوحون باللافتات لحين توقفنا لنحيي الاحتفالية .

وكان كيم فيلبي آنذاك يتمتم (كان والدي يكره ذلك) كان والد فيلبي واحد من المستكشفين في الصحراء العربية ولم يتمكن من الدخول إلى اليمن التي نحن فيها وراكبين كسياح وحشيين .عدد لا

عربات مليئة برجال القبائل معهم الكثير من حزم القات تحت أسلحتهم تسابقوا لتحيتنا، حملونا على وسيلة نقل وقادونا عبر بوابة مبنية جدرانها من الطين تحيط بالعاصمة كان منظر مدهش مدينة بأكملها كانت نسخة مصغرة لناطحات السحاب بخمسة أو ستة طوابق عالية كلها من الطين ، محاطة نوافذها بنقوشات بيضاء وهناك حمير ملونة بالحناء تهرول في كل الأزقة إلى مواقف الدكاكين القديمة و المرأة محجبة بحجاب زاهي الألوان بحجم الأغطية التي تغطي المائدة – يتجمعن حول أنبوب المياه كان الجنود يتمشون بالأسلحة الروسية بين القبائل الحفاة في الجدائل .

توجهت العربات خارج أحد الأبنية الحجرية في المدينة إلى قصر قديم يعج بالجنود والضباط المصريين والذي هو مقر الثورة.

بخطوات أمامية دخل رجل من الحاشية وقدم نفسه بصفته نائب رئيس الوزراء يريد منا أن نأتي إلى الطابق العلوي لنتناول الغداء وكانت

رأينا بضعة جنود مرتمين أسفل كرسي عرش الإمام يضربون ببنادقهم على ركبهم ويهتفون (تحيا الجمهورية)

مرتمين أسفل كرسي العرش يضربون ببنادقهم على ركبهم ويهتفون (تحيا الجمهورية).

لم يكن هناك الكثير من الأماكن المبنية نصفها بالحجارة والنصف الآخر بالطوب والطين .كنا نريد أن نسمع أن الإمام كان يملك قطار كهربائي يجري حول حمام الاستجمام التابع له ، لم يكن هناك حتى مركب قديم ، كان الحمام زنزانة صلبة خضراء مع صنبورين للمياه الباردة ودلو خشبي ، كان المطبخ صينيات من الصفيح الرخيص ، تحمل صورة الملكة إليزابيث والأمير فيليب.

في الغرفة الأخرى خزائن فيها بعض الأمتعة الملكية الشخصية الدقيقة نصف مجموعة من الدومينو (الدومنة) وفرشاه أسنان مكسورة وعلبة من الشوكولاته ومجفف شعر للحيته لابد

حكم لمدة (14) سنة بالسيف أعدم معارضيه علناً وضرب عنق شقيقيه والبعض كان يقول إنه اتبع سياسة والده بالإبقاء على القبائل بحبس الشيوخ وأخذ أبنائهم كرهائن .

بعض اليمنيين وصفوه بأحمد (ياجناه) والبعض الآخر وصفوه بالعمامة الكبيرة .. لكني وجدت العمامة في غرفة نومه وجربتها فكانت صغيرة جداً وفي مساء ذلك اليوم التقينا أعضاء مجلس الوزراء الجدد والذين وضعونا في بيت الضيافة الملكية المزعجة من قبل أشخاص مزعجون ومحمية من قبل الجنود الذين يتناولون القات على الأرض ويغنون طوال الليل.

بعد الإفطار (بالجبن المعلب) أخذنا معلومات من خدام بيت الضيافة مع ماريا ثيريسا سيلفر ثيلر وأقلتنا

القوات المسلحة والأمن .. الحارس الأمين لمكاسب الثورة والجمهورية والوحدة والشرعية الدستورية